المحاضرة الرابعة

الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة

الدكتور سمير استيتية
جامعة اليرموك

الأربعاء 16 محرم 1435هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2013م

المفهوم والنشأة والتطور:

لو لم يكن لتحديد المفاهيم إلا أنه يضع بين يدي الباحث التصورات الأولية التي ينبغي أن يكون عليها بحثه، لكان هذا كافيًا، فكيف إذا كانت صورة المفهوم هي الأساس الذي يعينه على رسم خريطة الطريق لبحثه؟ لقد أصبح من المتفق عليه أنّ المصطلحات العلمية ينبغي أن تكون محدّدة تحديدًا دقيقًا؛ ليتمكن الباحث من أن يصل إلى ما يريد.

شاع مصطلح الخطاب شيوعًا ملحوظًا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وفي العقد الأول من هذا القرن، وما زال الأمر كذلك. وبدلا من أن يفضي هذا الشيوع إلى تحديد المصطلح – ومن ثمّ فهمه – أفضى إلى نقيض ذلك في كثير من الأعمال التي تتحدث عن الخطاب.

أيًّا كان الأمر، فقد كان في توجّه الباحثين إلى دراسة الخطاب تحولٌ ملحوظ في الدرس اللساني المعاصر. لقد كان نحو الجملة هو المسيطر على التفكير اللساني في جُلّ النظريات الغربية المعاصرة. وما في ذلك من ضَيْر ولا حَيف من حيث المبدأ؛ فاللغة – من حيث أداة تفاهم وتواصل – تقوم على مرتكزات أساسية، والجملة من هذه المرتكزات. وحتى يفهمَ الناسُ بعضُهم بعضًا، يجدرُ أن تكون الوحدة التواصلية الأساسية المفيدة – وهي الجملة – سليمة، وحتى تكون كذلك، وحتى يقف الباحثون على العمليات العقلية العليا التي تصدر عنها الجملة، لا بدّ أن يأخذ التنظير لها مداه. ولمّا كان التفكير اللغوي التقليديّ في الغرب قد استولى على عقول المعلمين والمتعلمين قرونًا، فلا أقلّ من أن تأخذ ولادة الرؤى الجديدة في التنظير للجملة حظها من الوقت.

انتبه المنظرون اللسانيون إلى أهمية الخطاب باعتباره الركيزة الأساسية التي تقوم عليها وظائف اللغة. وكان ياكوبسون من أوائل الذين اهتموا بدراسة الخطاب

من حيث كونه الوجه التواصليّ للغة. وقد صرَّف كثيرًا من أعماله من أجل تحقيق هذا التوجّه. وقد أفضى به جهدُه وتفكيرُه إلى تقسيم العملية التواصلية ستة أقسام، بها يظهر الخطاب في ستة أركان هي: المرسل، والمستقبل (بكسر الباء)، والسياق المقامي الذي يكون فيه الخطاب أو الرسالة، ومضمون الرسالة، والاتصال الذي تنشئه الرسالة، والنظام اللغوي الذي أقيمت عليه.

يشبه هذا التقسيم ما ذهب إليه الشكلانيون الروس في تقسيم الحدث الكلامي (الخطاب)؛ فقد ذهب باختين إلى التقسيم الآتي: المتكلم، والمستمع، والموضوع، والكلام نفسه، والتناص، والمستوى اللغوي الذي يؤدى فيه الكلام.

لكنّ ياكوبسون تجاوز ما ذهب إليه الشكلانيون الروس، فوقف عند وظائف كل قسم من أقسام العمل التواصلي (الخطاب)، فكانت هذه الوظائف موزعة على النحو الآتي:

أولا: الوظائف المرجعية التي يؤديها الحدث الكلامي في سياق مقامي، أو مجال من مجالات التواصل. وتظهر هذه الوظائف في نقل الأخبار بصورة محايدة، وفي المعلومات والحقائق العلمية، وفي وصف الأشياء كما هي وصفًا مجردًا، من غير أن يكون للمرسِل أي توجه خاص، او انطباع ذاتيّ، يؤثر في نقل الخطاب، أو يبرزه على أنه وجهة تصوّر المرسل. إنّ الوظائف المرجعية مجرّدةٌ من كل ميل عاطفي، أو رغبة ذاتية، أو ميل وجداني. وبذلك يكون الخطاب في أدنى درجات التوجه الوجداني، ولا يصح أن يكون معه انفعالٌ أو ميلٌ وجداني في هذه الحال. مثال ذلك أن تقول: هذه الطريق توصل إلى الجامعة، جوابًا لمن سألك: أين الطريق التي توصل إلى الجامعة ؟ فإذا عاد وسالك السؤال نفسه مرة ثانية منكِرًا أن تكون المعلومة صحيحة، مع علمك بصحتها، قلت له وفي نبرة صوتك ارتفاع، وفي تنغيم الجملة شيءٌ من التأثر والانفعال: هذه هي الطريق التي

توصل إلى الجامعة، لم تعد المعلومة مرجعية خالصة، لقد ظهر فيها شيءٌ مما سيرد في الفقرة التالية.

ثانيًا: الوظائف التعبيرية وهي التي يتجاوز فيها الخطاب تقرير المعلومات وسردَ الحقائق المجردة، ليصبح الخطاب فيها معبرًا عن أمر ينحاز إليه المرسل، أو يرغب فيه، أو يؤكده، أو يعاني منه أو يستهجنه. ولا نقصد أنّ الخطاب في هذه الحال يخرج عن كونه معلومات وأفكارًا، ولكننا نقصد أنه يستخدم هذه المعلومات والأفكار من أجل بيان موقفه، أو بيان أثرها فيه، أو تأكيد المعلومة التي يعرفها. يمكن توضيح هذه المسألة ببعض الأبيات التي قالتها ليلى الأخيلية في رثاء حبيبها توبة بن الحُمَيّر:

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا لم تُصِبْهُ في الحياة المعايِرُ
وما أحدٌ حيٌّ، وإن عاش سالمًا ... بأخلدَ مِمَّنْ غيَّبَتْهُ المَقابرُ
وكلُّ شباب أو جديدٍ إلى بِلىً ... وكلّ امرئ يومًا إلى الله صائِرُ
وكلّ قَرينيْ أُلْفَةٍ لِتفرّقٍ ... شتاتًا، وإن ضنّا وطالَ التعاشُرُ

ذكرت الشاعرة مجموعة من الحقائق التي نعرفها، من جملتها أنّ الموت ليس عارًا، وأنّ العار الحقيقيّ هو أن يقع الأحياء في المعاير. ومنها أنّ الحيّ ليس أخلدَ من الميت؛ لأنه سيصير إلى ما صار إليه، وغير ذلك من المعلومات التي يعرفها كل واحدٍ منا. لا تريد الشاعرة أن تخاطبنا بهذه المعلومات ولا أن توصلها إلينا. إنها تقرّر أنّ حبيبها توبة لم ينل ما يجعله محل سخط الناس وكراهيتهم في حياته، وأنه تبعًا لذلك لن يكون محلّ سخطهم في مماته. مدحٌ لا يطمع أي امرئ بأكثر منه ولا أن يزيد عليه مُؤَبّنوه ومادحوه بعد موته. وإذا نظرنا في قولها: وكلّ شباب أو جديد إلى بلى..... إلخ وجدنا مضمونها معروفًا شائعًا. ومن هنا فإن

الشاعرة لا تريد أن تخبرنا بها؛ إنها تُعزّي نفسها بموت توبة، تعزية تقرّرُها لنفسها قبل أن تقرّرها لنا، من أجل أن تطمئن، ويخف حزنها ولو قليلا. فهي بهذا متوجهة إلى نفسها قبل أن تتوجه إلى الآخرين.

ثالثًا: الوظائف النزوعيّة: المقصود بذلك أنّ أهم هدف للخطاب هو أن صاحبه ينزع به إلى المتلقي. وإنما يؤدي الخطابُ هذه الوظائف أداءً صحيحًا إذا استطاع أن يصل المرسل بالمتلقي، فيكون تركيز الخطاب موجهًا إليه في المقام الأول؛ وذلك بإحداث تأثير من نوع ما على المتلقي. ويمثل هذه الوظائف خير تمثيل أبوابٌ متعددة في النحو والبلاغة العربيين، منها: النداء، والإغراء، والتحذير، والأغراض البلاغية، وما تؤديه هذه الأبواب من تطبيقات في السياقات والمقامات المختلفة. ولما كان المستقبلُ ركنًا أساسيًا من أركان الخطاب والعملية التواصلية برمّتها، كانت عناية كل واحد منا كبيرة بتصريف الكلام على النحو الذي يجعله مقبولا عند الآخرين. لم تكن البلاغة أصلا إلا من أجل أن يكون للخطاب أثر كبير في الناس. ومن هنا كان التنافس الضمنيّ غير المعلن بين الشعراء والفنانين على خوض معركة التسابق في الوصول إلى الناس. وما كان هذا ليكون لولا أنّ النزوع إلى الآخرين هو الهدف الذي يسعى الخطاب إلى تحقيقه. فكل شاعر يعرف أنّ استحسان الناس لشعره ما هو إلا نتيجة للوظيفة النزوعية التي أداها حُسْنُ التأتّي في خطابه.

رابعًا: متابعة الخطاب: لكل لغة من اللغات أساليبها وطرائقها في المحافظة على اتصال الخطاب، واستمرار متابعة المتلقي للمرسِل؛ فما قيمة أن نخاطب الناس وقد شردت أذهانهم عن بعض ما نخاطبهم به ؟ في العربية يجد المتكلم نفسه في بعض السياقات والمقامات أنه في حاجة إلى أن يربط المتلقي بخطابه، فيقول له: أرأيت ؟ هل أنت معي ؟ هل هذا مفهوم ؟ أليس كذلك ؟ وهلمّجرًا.

خامسًا: الوظائف الجمالية: إن الخطاب القائم على جماليات اللغة وإمكاناتها المختلفة هو الخطاب الذي يمكن أن يربط المتلقي بالخطاب أوعى ما يكون الربط. وللعربية إمكانات جمالية تواصلية لا يمكن أن نحصيها في هذا المقام. فالتشبيهات والمجاز والكناية والاستعارات بأنواعها والبديع من الإمكانات التي تدل على أنّ العربية ليست لغة توصيل الأفكار فقط ؛ إنها علاوة على ذلك لغة الجمال.

سادسًا: الوظائف التداولية: وقد سماها ياكوبسون وظائف ما وراء اللغة؛ وهي الوظائف التي يؤديها الخطاب في المقامات المختلفة، عن طريق توظيف التراكيب اللغوية في أداء دلالات ليست لها في الأصل. فالتداولية تجعلنا نفهم من اللغة ما وراءَ دلالاتها المباشرة. فعندما تقول لشخص يتكلم: أرجوك أن تسمع، فهذا التركيب يدل على أن المتكلم يواصل حديثه، وأنه لا يريد أن يتوقف أو أن يصغي إلى الشخص الذي يكلمه. ومن ذلك مثلا أنك تقول لصديق لك: أنا أنصحك ألا تفعل كذا، فهذه العبارة تعني تداوليًا أن المتلقي يريد أن يفعل أمرًا بخلاف ما ينصحه به الطرف الآخر، وأنّ عنده ما يشبه ترجيح فعله، وأنّ المتكلم يعرف إمكان وقوع الضرر إذا صار المتلقي إلى فعل ما ينصحه المرسل بخلافه، وأنّ ما يقوله ليس وجهة نظر أو رأيًا فقط ؛ إنه علاوة على ذلك نصيحة يمحضها للمتلقي.

ملكات الخطاب:

يرى فان ديك Van Dick أنّ الناطقين باللغة يستعملون في الخطاب خمس ملكات، ولكل واحدة منها قالبٌ خاصٌّ بها في الخطاب، والمقصود بالقالب هو أنّ لأداء كل واحدة منها طرقًا وإستراتيجيات معينة، هذه الملكات هي: الملكة

المنطقية، والملكة الإدراكية، والملكة المعرفية، والملكة النحوية، والملكة الاجتماعية. وسآخذ بما ذهب إليه ديك، إلا أنني سأفسّر كل واحدة من هذه الملكات بحسب ما أراه، دون أن يكون هذا التفسير هو ما أراده ديك بالضرورة.

أما الملكة المنطقية فهي متصلة بالعلاقات ذات البناء التنظيمي للتفكير في اللغة، والتفكير في كيفية توصيل الأفكار إلى الآخرين. ومن شأن هذه الملكة أن تجعل الخطابَ منظمًا، وأن تربط المعلومات بعضها ببعض، وأن تجعل الأفكار متسلسلة، وأن يتوالد بعضها من بعض. ويفترض فيها قبل ذلك كله، أن تخاطب في المتلقي كينونته المنطقية. ومخاطبة الكينونة المنطقة تعني مخاطبة كل إنسان بما يفهم، ومخاطبة أهل كل عصر بلغة عصرهم، وأهل كل بيئة بما هو مفهوم في بيئتهم. وعلى هذا الأساس، ليس من المقبول أن يكون الخطاب النحويّ في عصرنا هو الخطاب النحويّ الذي كان في القرون الخوالي. هذه ليست دعوة إلى التخلي عن التراث؛ إنها دعوة إلى عصرنة التراث؛ لأنّ هذا من أظهر بدهيات الملكة المنطقية عند الإنسان.

وعلى أساس هذا يكون حظ الكلام من التوافق المنطقي مع الآخرين، بغض النظر عن كون مضمون الرسالة عند المتكلم متوافقًا أو غير متوافق عند المخاطَبين. والتوافق لا يعني الاتفاق على صحة تلقي مضمون الرسالة بالضرورة. التوافق المنطقي خطوة تواصلية مهمة في سبيل الوصول إلى التوافق على المضمون؛ فنحن نتواصل على أساس المنطق الذي تؤدّى به المعلومات، ولا نتواصل على أساس صحة المعلومات فقط. وإذا لم يحصل التوافق على المضمون، فما من شكّ أنّ التوافق المنطقي يجمع الناس في موضوعات شتى، فالاتفاق على صحة المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان، من الملكات المنطقية.

والملكة المنطقية ليست لغوية، ولكنها ملكة التصرف باللغة بحيث يكون المرسَل منها نسيجًا مترابط الأجزاء.

أما الملكة الإدراكية فهي التي تمكّن الإنسان من استيعاب المعلومات والمعارف التي يستقيها وتمكنه من تفسيرها. هذا إذا نظرنا إليها من جهة التلقي. أما إذا نظرنا إليها من جهة صاحب الخطاب فالملكة الإدراكية تجعل الإنسان قادرًا على تنظيم أفكاره في لحظات الخطاب، فيستوعب الذي يقال، ويتمكن من تنظيم الأفكار المناسبة التي تجعله قادرًا على الردّ على ما سمعه، أو التنسيق بين الأفكار التي تلقاها، وما هو مختزن في ذهنه من أفكار توافقها أو تخالفها.

وأما الملكة المعرفية فهو منظومة المعلومات المعرفية التي يختزنها الإنسان على مرّ الأيام. وهنا نودّ أن نؤكد أنّ المعلومات التي يختزنها الإنسان في موطن اختزان المعلومات تجري على لسانه بعد حين، وهو لا يتذكر اللحظة التي اختزنها فيها أول مرة. وهذا يعني أنّ الخطاب ليس صنعة اللحظة الآنية؛ إنه نتيجة ما يختزنه الإنسان في حياته كلها، ولكنّ اللحظة الراهنة تولد من هذا المختزن ما يناسب هذه اللحظة.

وأما الملكة النحوية فهي مقدار التمكن والإتقان اللذين يتحققان للفرد في استعمال قواعد اللغة، ليس في النحو فقط – على الرغم من تسمية هذه الملكة – ولكن في الصرف، والبلاغة وأساليب اللغة. ولذلك كنت أفضل تسمية هذه الملكة بالملكة اللغوية؛ لأنها الوحيدة التي تمثل أنظمة اللغة النحوية والصرفية والبلاغية من بين الملكات جميعها.

وأما الملكة الاجتماعية فيمكن تمثلها من جانبين أولهما أنّ الفرد يمثل المجتمع إلى حدّ كبير في لغته وثقافته وبعض أنماط السلوك. وثانيهما أنّ الإنسان

يوجّه خطابه إلى المجتمع. وعلى ذلك يكون الخطاب صادرًا من وعي الفرد بهذين الأمرين.

المكونات اللسانية – النفسية للخطاب

يصحبُ الرسالة اللغوية التي تصدر عن المتكلم – في أيّ شأن من شؤون الحياة – وَعْيٌ بأربعة أشياء، نجدها في ما تصل إليه إجابات الأسئلة الآتية:

1. ماذا أريدُ أن أقول ؟ 2. مَن الذي أُخاطبُه ؟ 3. كيف أُخاطبُه ؟ 4. لماذا نخاطبه ؟ ولا أريد أن أعرض لهذه الجوانب من الجهة اللغوية فقط، بل من الجهة النفسية كذلك؛ فإن الوعي بصلات هذه الأسئلة بجوانبها النفسية يجعلنا قادرين على فهم جوانب خفية في اللغة نفسها.

عندما ننظر في هذه الأسئلة ونستوعبُ إجاباتها – ونحن نفكر حتى في الجملة الواحدة – فقد خرجنا من إطار الجملة إلى إطار الخطاب. فالخطاب يقف خلف الجملة، ويوجِّهُ إخراجها وتوجيهها. بذلك يتحول النظر في الجملة إلى النظر في الخطاب ؛ ذلك أنّ العقلية التي تقف خلف بناء الجملة هي نفسها التي تقف خلف بناء النص، من حيث إنّ كليهما في النهاية خطاب. ولكن طريقة إخراج الجملة مختلفة قليلا أو كثيرًا عن طريقة إخراج النص برمّته.

إنّ الأسئلة الأربعة الآنفة الذكر هي التي تجعل الجملة صحيحة ؛ أي أنها هي التي تجعل الجملة جملة، وهي التي تجعل الخطاب صحيحًا كذلك؛ أي أنها هي التي تجعل الخطاب خطابًا. تتضمن هذه الأسئلة إجابات لما تحدث عنه فان ديك، وهو يتحدث عن الملكات الخمس التي شرحناها في الجزء الأول من هذا البحث.

مضمون الخطاب : يمثل السؤال الأول من الأسئلة الأربعة المذكورة آنفًا مضمون الخطاب، وهو مرتبط بعدد كبير من المقولات التي تجعل خطابنا مقبولاً

أو مرفوضًا، مفهومًا أو غير مفهوم، ضروريًا أو غير ضروري، تفاعليًا أو غير تفاعلي. من السمات الأساسية التي يتكون منها الخطاب المقبول أنه ينبغي أن يتشكل من القاعدة النفسية اللغوية التي تنبثق من مصدرين أساسيّيْن هما: المجتمع والفرد. فمن المعلوم أنّ للمجتمع تصورًا ذهنيًا لا يستطيع الناس عادة أن يعبّروا عن حقيقته، مع أنّ كلامهم في ذاته يصوّر البنية الذهنية للمجتمع تصويرًا دقيقًا. غير أنّ كلام الفرد ليس صورة فوتوغرافية لما يقوله الناس في المجتمع. إنه الصورة المدمجة بين الكينونة المجتمعية، والكيفية التي تتمثل بها شخصية الفرد هذه الكينونة.

يلتقي كلٌّ واحد منا مع الآخرين، في بعض السمات والملامح والخصائص الذهنية والعقلية والوجدانية، ولكنه يختلفُ عنهم جميعًا، باعتباره النموذج الذاتيّ الذي يمثل هذا المجتمع، ولا أقول النموذج الفرديّ؛ لأنَّ الفرق بين المفهومين كبيرٌ كبيرٌ. فالنموذج الذاتيّ هو الصورة التي تنطبع في الإنسان باعتباره شخصية مختلفة عن كل شخصية، باعتباره كينونة مستقلة عن كل كينونة، باعتباره ذاتًا لا باعتباره فردًا. ولو كان هذا النموذج نموذجًا فرديًا فقط، وليس ذاتيًا، لما كان بينه وبين أيّ فرد في المجتمع أيُّ اختلاف، ولكان شأنهم في ذلك شأنَ المادة التي ينتجها أحدُ المصانع. فالمصنع ينتج ما لا يحصى من أفراد هذه الأدوات، وكلُّ أداة تشبه الأخرى بحيث تكون كل واحدة منها هي الأخرى، ولكنها ليست إياها، بسبب التعدّد، لا بسبب الاختلاف والتميز. هذا ليس موجودًا في الذات الواحدة التي يختلف كل شيءٍ في بنيتها السيكولوجية والذهنية والوجدانية، عن البنية السيكولوجية والذهنية والوجدانية لكل ذاتٍ أخرى. إنّ ما ينجم عن تمثل الفرد لصورة المجتمع لا يتكرّر. وعلى ذلك، لا مفرّ من التسليم بأنّ لِخطاب الواحد منا

وَجهًا مشتركًا مع الآخرين، لا يتفاوت فيه الناس كثيرًا، وخطابًا مفردًا لا يلتقي فيه اثنان؛ إنه بصمة الخطاب. هذا المفهوم لم يكن أحدٌ يقفُ عنده من قبل.

ما الذي نقدّمُه في خطابنا ؟ يمثل هذا السؤال جوهرَ وجود كل واحدٍ منا. فنحن نقدّم ما هو مُستكنّ في البنية الذهنية، وما تستقبله هذه البنية من معلومات، والعمليات العقلية الدنيا ، والعليا التي نؤديها في استقراء هذه المعلومات، والتصورات التي نبنيها منها، والمواقف التي تؤلفها كينونةُ الذات الإنسانية. هذا هو الذي نقدمه في خطابنا مختصرًا. وعلى ذلك إذا كنا على أن نعرّف الخطاب قلنا: إنه البنيةُ الذهنيةُ ذاتُ الطابع الهندسيّ البيولوجيّ الذهنيّ التي تؤلّف من التصورات التراكمية كلامًا. هذا يعني – كما هو واضح – أنّ الجملة الواحدة التي ننطقها هي نتيجة عدد لا يمكن إحصاؤه من التراكماتِ البنائية، والعملياتِ العقليةِ الدنيا والعليا التي تقف خلف كل جملة نقولها. ودراسةُ الخطاب تقفُ عند هذه العمليات، وتردُّها إلى ما تتألّفُ منه من تراكمات بنائية، وتقف عند الأساس، أو مجموعة الأُسس التي جعلتها على صورتها النهائية.

لا ينبغي لنا – ونحن ندرس الخطاب – أن ننظر إلى ما نَبْنيه من الجمل والتراكيب، بالطريقة نفسها التي ينظر بها النحويُّ إلى هذه الجمل والتراكيب، مع أنّ الموضوع واحدٌ. النحويُّ يعنيه من جملة ما يعنيه أن يُعربَ زيدًا في قولنا: زيدٌ مجتهدٌ، فيقول: زيْدٌ مبتدأ. صحيح أنه ليس بعيدًا عن الخطاب، في قوله إنه مبتدأ، لكنه ليس قريبًا منه كذلك. إنّ المنطق الذي يجعل زيدًا مبتدأً في عبارة(زيدٌ مجتهدٌ) يعنيه في المقام الأول أن يقف عند الكلمة التي يُبْتَدَأُ بها الكلام، على أساس أنها محورُهُ. وما كان شأنه كذلك فلَه حقُّ التصدُّر. لكنهم عندما نظروا إلى الفعل الذي تبتدئُ به الجملة الفعلية لم يقولوا عنه إنه مبتدأ، على اعتبار أنّ المبتدأ محصورٌ في الاسم الذي يصلح دون غيره أن يوصف بأنه مبتدأ. هذا هو

المنطق الذي يؤلف خطاب الجملة الاسمية. ليس في هذا ما يعيبه ولا ما ينتقص من قدْرِه؛ فإنّ لكل أمةٍ أن تتصور الأشياء بطريقتها الخاصة، وأن تعبّر عنها بالخطاب الذي ترتئيه. وإنه لمن الخطأ الفادح أن يأخذ التسرع في خطاب بعضنا مأخذه عند النظر في التراث اللغوي دون أن نحوط خطابنا بقدر كبير من الحيطة والحذر؛ فما كل ما يقال في النظر الغربي يلائم أن يقال في اللغة العربية. وفي المقابل ليس لنا أن نردّ ما يمكن أن يستفاد منه في النظر العالميّ كله، على اعتبار أن الحضارة اللغوية حضارة إنسانية قبل أن تكون حضارة لأمة بعينها.

يتجاوز الخطابُ – ومن ثَمَّ تحليلُه – النظرَ إلى الجملة الاسمية، أو الفعلية، الإخبارية أو الإنشائية، باعتبار ما هي عليه من الظاهر المنطوق؛ فهو يَسْبر غور المنطق الذي تصدر عنه كل واحدة منها. وبيانُ ذلك مثلا أنّ كلّ جملة استفهام تتضمّن إخبارًا، بل إنها تصدرُ عن إخبار. فعندما تسألُ رجلا: ما اسمُك؟ فهذه الجملة تتضمّنُ بالضرورة إخبارًا، وتصدرُ عنه؛ فهي تعني: أنا لا أعرفُ اسمَك، وأريد أن أعرفَه؛ فانطوى هذان المعنيان: عدمُ المعرفة، والرغبة فيها في صيغة السؤال. وعندما يقال: متى وقع هذا؟ فالمعنى الإخباريُّ المتضمنُ في هذا السؤال: عرفت أن هذا قد وقع، ولكني لا أعرفُ الوقتَ الذي وقع فيه، وأرغب في معرفته، أو أريد أن أعرفه. وهكذا الحال في كل سؤال. غير أنّ القيمة العملية للسؤال تتجاوز هذا إلى أن يصبح السؤالُ أساسَ كثير من القرارات التي نتخذها في حياتنا العملية، ليس بسبب أنّ الجواب هو الذي يجعلنا نفعل ذلك، وإنما لأنّ السؤال هو الذي قاد إلى الجواب.

ينظر تحليل الخطاب إلى الجملة الاسمية – من حيث دلالتها على الثبات – باعتبارها أيقونة الثبات في التركيب؛ في حين ينظر إلى الجملة الفعلية باعتبارها غير دالة على الثبات، فهي قابلة للتغير. ونقدم مثالا لذلك ما جاء في القرآن

الكريم حول قصة الملائكة عندما دخلوا على إبراهيم، يقول القرآن الكريم: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلامًا، قال سلام) (هود 69). هذا يعني أنّ الملائكة سَلّمَتْ عليه بما يؤدي معنى الجملة الفعلية في العربية، وردّ عليهم بما يؤدي معنى الجملة الاسمية في العربية، والجملة الاسمية أكثر دلالة على الثبوت والاستمرار في العربية ؛ فيكون إبراهيم عليه السلام قد ردَّ التحية بما هو أحسن منها. وليس هذا التفاضل بين إلقاء التحية والردّ عليها من هذا الوجه فقط ؛ فالجملة الفعلية تدلّ على التغير الذي يناسب طبيعة البشر المتجسدة في إبراهيم عليه السلام، ولكنه ردّ عليهم بما يناسب طبيعتهم المتمثلة في عدم التغير. عبّر القرآن الكريم عن ذلك كله بحركة إعرابية، في مقابل حركة إعرابية أخرى.

ثمة مشكلات كثيرة يلتبس فيها الخطابُ الذي نقدّمه، بالخطاب الذي نجدُ أنه الأمثل، مع أنه قد لا يكون كذلك عندما نبلغ حدّ المبالغة في ذلك. فالخطابُ المِثاليِّ في نظر بعض اللغويين هو الذي لا يتجاوز ما هو مركوز في المعاجم من ألفاظ، وما في كتب الصرف من صيغ ومبانٍ، وفي كتب النحو من قواعد وأحكام. ولثقافة المرءِ أثرٌ في ذلك بخاصة عندما يكون قدْرٌ من ثقافته قائمًا على أنّ اللغة لا تتجاوز حدود مقولة: قل ولا تقل. بل تجدهم يتجاوزون الحديث عن الخطأ إلى تخطئة الذي له وجهٌ من الصواب، والصواب الذي لم يصل نَبَؤهُ إليهم. وربما كان الذين يبالغون في ذلك لا يدركون أنّ اللغة خطاب، وأنّ الخطاب لا ينبو بكلمة تكلم بها العربُ، وأنّ عدم إجازة عالم أو فريق من العلماء لتلك الكلمة أو ذلك الاستعمال، لا يعني أنّ قائله قد أتى منكرًا من القول وزورًا.

ذكرتُ أنّ الفردَ يُمثل ما اختزنه وعْيُهُ من العقل الجمعي الذي يمثل الفردَ في الكينونة الجمعية، ويمثل الثقافة الذهنية لهاتيك الكينونة، والثقافة الذاتية التي تحمي وجودَها بانتمائها إلى تلك الكينونة الجمعية. ووضحتُ أنّ سلوك الواحد

يمثل المجتمع على نحو أو آخر. وإذا كان الأمر كذلك – وإنه لكذلك – فمن باب أوْلى أن يكون المجتمعُ نفسُه قد احتذى حذوَ الصورة الأنموذج للخطاب. ومن هنا تجدُ أمةً من الأمم ذاتَ خطاب حادّ، وثانية ذات خطاب استعلائيّ، وثالثة ذات خطاب ماديّ، ورابعة ذات خطاب غيبيّ، وخامسة ذات خطاب هَزْليٍّ ضاحك، وسادسة ذات خطاب قويّ، وسابعة ذات خطاب ضعيف، وهكذا دواليك. وتظهر آثار ذلك كلّه في كلامنا. وإذا كان ذلك سمتَ عامّة المجتمع، فمن غير المنكور أن يُتوقع صدورُ مثل هذا السلوك أو ذاك من الأفراد. وإنما يفعل الأفراد ذلك لأنهم من نتاج ذلك المجتمع وتربيته.

يفترض في اللغة – باعتبارها أداة اتصال – أن تكون الوعاءَ الذي يُصنع فيه الخطاب. ولكنّ اللغة المنطوقة وحدَها لا تؤدّي ما يُؤدّيه الخطاب؛ فالخطابُ هو الذي يجعل الكلام قابلًا. عندما تجدُ إنسانًا يتكلم بكلام كثير، ثم لا يكون له من هذا الكلام إلا أنه يقصد شيئًا يسيرًا محدَّدًا، لا يستحقّ الجهد الكبير الذي بذله في الكلام، ماذا يحدث؟ يصفُه الناس بأنه مِهذار، ووصفُهم له صحيحٌ ما عليه من سبيل. وعندما تستمع إلى شخص آخر يتكلم قليلا، ولكنه يُسْدي مع الكلام القليل مقاصِدَ ومعانيَ كثيرة، ستجدُ الناس قد استوعبوا منه ما أرادَ أن يقول، وربما ذهب بعضُهم إلى فهم معاني أخرى لم يقصدها، ولكنها صحيحةٌ؛ لأنهم ذهبوا في ما استمعوا إليه، إلى آفاق يفتحها الكلام. قد يتفق الناس جميعًا على ما فهموه من هذا الإنسان، وقد يختلفون بحيث يكون لكلّ واحدٍ منهم شأنٌ تستوعبُهُ ملكاتُه الذهنيةُ، وتستنتجُهُ العملياتُ العقليةُ التي آتاهُ اللهُ عزّ وجلّ إياها. هذا الكلامُ الذي يؤدّيه هذا الشخص خطابٌ. فهو لغةٌ باعتباره كلامًا منطوقًا، ولكنه فوق ذلك لغةٌ تستكنُّ في اللغة المنطوقة، أو خلفها، فكان قمينًا أن يكون هو الخطاب.

أكثر الذي قلناه حتى الآن مرتبطٌ على نحو أو آخر بتأويل الكلام؛ إذ ما دام العقل الجمعيّ والفردي يكتنزان صورًا لا يمكن حصرها من الخطاب، فإنّ تأويلَ الخطاب جزءٌ أساسيٌّ من فهمه. ويبدأ التأويل من النقطة التي يظهرُ فيها أعمُّ الكلام وأكثرُه شيوعًا، إلى أقلّه تداولا بين الناس. وقلّ أن ينتبه الناس – حتى المتخصصون منهم – أنّ هذا الذي يشيع على ألسنة الناس يحتاج إلى تأويل. نأخذ مثالا لذلك الفعل (قال) في العربية؛ فهذا الفعل يكاد يكون أكثر الأفعال في العربية شيوعًا وتداولًا. ولكنه يكشف عن معانٍ مخبوءَة خلفه؛ لبيان ذلك نقف عند هذا الفعل في الآية الكريمة: " قال ما منعك ألا تسجدَ إذ أمرتك؟ قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين " (الأعراف). هذا موطن سؤال كما هو واضح، فالفعل قالَ هنا يعني: سألَ، ولكنّ الفعل (سأل) لم يَرِدْ له ذكرٌ. وقدْ وَرد الفعل قال نفسُه في الآية نفسِها، ولكنه هذه المرّة بمعنى: أجاب. غيرَ أنّ الآية كما عَرَفتْ عن الفعل سألَ، عزفتْ عن الفعل أجابَ. ولماذا كان ذلك؟ الجواب في حاجة إلى تأويل، أو قل: إنّ الجوابَ نفسَه سيكون تأويلًا؛ لأننا نُؤَوّل خطابًا، ولا نفسّر جملة. ربّما يكون السبب هو أنّ السياق ليس سياق سؤال وجواب؛ إنه أكثر من ذلك بكثير؛ إنه موطن محاسبة: الصوابُ فيه واضحٌ، والخطأ واضحٌ أيضًا. وما دامَ الأمر كذلك فالخطاب باعتباره قولا أولى منه باعتباره سؤالا وجوابًا. وينبغي أن نعلم كذلك أنّ الفعل سَأَلَ يتضمن في بعض السياقات إشارة ضمنية بوجود عدم معرفة السائل للجواب. ولذلك تجنّبَ القرآنُ الكريمُ ذكرَه؛ حتى لا يقع في الوهم من لا يفقه العربية. والخطاب القرآني لا يدانيه خطاب في إبراز بعض القضايا، وتسليط الضوء عليها، وترك بعضها الآخر للمتلقي ذي الحس المرهف يستنتجها بنفسه، ويفسرها بوعيه.

إذا كانَ الأمر على هذا النحو من تعدّد المعاني للفعل قال الشائع استعماله – وأظهرُ استعمالاته تدل على الكلام – فمن باب أَوْلى أن يكون ذلك في الأفعال التي تحمل معانيَ متعددةً، وفي التراكيب التي تستظلُّ بما يستظلُّ به الخطابُ من حصانة اجتماعية وفردية. وحتى أوضح هذه المسألة أذكر القصة الآتية: يُروى أنّ محمدَ بنَ الحسن الشيبانيّ – صاحبَ أبي حنيفة – كان في مجلس هارون الرشيد، وكان طاووسٌ أحدُ كبار التابعين موجودًا في المجلس. وقد ذُكِرَ أحدُ العلماءِ في المجلس لفِعْلٍ فَعَلَه، فقال محمدُ بنُ الحسن: سبحان الله ! (يستقبح ذلك الفعل)، فقال طاووس: ما ظننتُ أنّ سبحان الله ستكون معصية لله، حتى كانت اليوم. نحنُ أمامَ خطاب متعدّد الاتجاهات، ولكنها تلتقي كلها لتصبح في اتجاه واحدٍ نهايةَ المطاف.

أما قولُه: سبحانَ الله ! فقد جُرِّدَ من دلالته اللغوية المعجمية – مع أنه يستظلُّ بها ظاهريًّا – ومن مقاصده الدينية تجريدًا كاملًا أو شبه كامل، وأصبحَ جُلُّ وُكْدِهِ أن يُنَبِّه الخليفة إلى سوءٍ يراه، هو أنّ الرجلَ المرادَ يستحق العقاب. ولما كان طاووس على علم بما أرادَه الشيباني، فقد تَبَرَّمَ مما سمعَ. فنحنُ إذن أمام خطاب تداوليٍّ، تتقلبُ له الدلالات اللغوية: هذا يقول سبحانَ الله ويعني شيئًا آخر، وذلك يقف عند المعنى الثاني فيصطادُه ؛ لأنه يعرفُ أنّ الخطاب قد تجاوز دلالته اللفظية، وحلّ محلَّه خطابٌ آخرُ توجَّهَتْ دلالته اللفظيةُ، إلى دلالة تستبدل باستقباح قولٍ ما، أو فعل معيَّن، مقولة سبحان الله، فظهرَ لطاووس الاستقباحُ الذي هو مرادُ الشيباني، أكثر مما ظهرت الدلالة اللفظية. لقد تكوّنت هذه الواقعة القصيرة من مكوّنا متعددة الاتجاهات، ولكنها التقت في النهاية في أنها جعلت من نفسها خطابًا متميز في الدلالة على نفسه.

وأريدُ لأُوَضّحَ هذه القضية بمثال آخر، هو قول طرفة بن العبد:

لخولةَ أطلالٌ بِبُرْقةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

هذا ليس تشبيهًا فقط ؛ ولو اكتفينا بالنظر إلى كونه تشبيهًا لما فهمنا شيئًا من بنية الخطاب فيه. إنه خطابٌ، وهو في هذا الوصف أكثرُ من كونه تعبيرًا عن منظر يراه الشاعرُ فيؤدّيه بعشر كلمات. ما يدلّ عليه ظاهر الكلمات هو أنّ لخولة – حبيبة الشاعر – أطلالًا في مكان اسمه: بُرقة (في حيًّ من أحياء العرب اسمه: ثهمد)، وأنّ هذه الأطلال باقية كأنها وَشْم على ظهر الكفّ. هذا هو المعنى الذي يقف عنده الناس عادةُ، وهو معنىً أوّلِيٌّ لا يظهرُ من ظاهره أنّ الشاعرَ يتحدث عن شيءٍ ذي بال. ولكنّ كونه خطابًا يعني أنه يريد أن يرسل رسالة للمتلقي، مُؤَدّاها أنّ أطلالَ خولةَ – على الرغم ممّا اعتراها من خراب – ما زالت باقية تلوح (تظهر) لي، بل لا تكاد تغيب عن عيني، مثلما لا يغيب عنها الوشمُ على ظاهر الكفّ، فهو أمام عيني، وقد تطاول العهد بهذا الوشم، وأوشك أن يَمَّحي – يشير بذلك إلى طول الزمن – ولكنه يستعصي على الامّحاء، فما زالت آثارُه على كفّ يدي، وما زال شأنُ أطلال خولة كشأن الوشم الذي أصبح كأنه جزء من يدي. فليس ثمة ما يمكن الاستشهاد به على جدوى النظر في الخطاب أكبر من هذا. إنّ الخطاب يسعى إلى أن تكون كل كلمة موضوعة في مكانها الصحيح.

من الذي نخاطبُه ؟

ربما يكون هذا السؤالُ على قدْر من الوضوح، بحيث إنه ليس في حاجة إلى أكثر من جملة واحدة تصلح أن تكون جوابًا له: نحنُ نخاطبُ الناسَ. هذه الإجابة يمكن أن تكون مقبولة عندما نريدُ أن نختصرَ الحقائق، وفي دراسة الخطاب لا تُخْتَصَرُ الحقائق. كلُّ صاحب خطاب يخاطبُ نفسَه أولا، فيكون خطابُه الذي نتداوله عندئذ وبعدئذ ثمرة ذلك الخطاب. وحتى أوضح هذه المسألة أقول إنّ

المرسلَ هو مستقبل للكلام الذي يقوله؛ لأنه بكلامه هذا يُخبرُ، أو يسأل، أو يأمرُ، أو ينهى، أو يتعجب، أو ينفي، أو يؤكّد، إلى آخر ذلك مما نعرفه من أغراض التواصل. وما من غرض من هذه الأغراض إلا وهو يشبعُ حاجة من حاجات صاحب الخطاب قبل غيره، أقول: قبل غيره ؛ لأنّ ذلك يعني أنه يرسل الخطاب أول ما يرسله فيكون هو المتلقيَ الأولَ له، مثلما كان هو المرسلَ، فيقعُ منه موقع القبول فيرسله إلى غيره، أو أنه يجدُ فيه ما لا يحتاج إليه، فيكفُّ عنه، أو أنه يجد أنّ خطابَه يحتاج إلى تعديل فيعدّله، قبل أن يرسله إلى غيره. ولو لم يكن صاحبُ الخطاب أولَ مستقبل له لما كان ثمة فرقٌ بين إنسان عاقل يعي ما يقول، وآخر قد فقدَ ملكاته العقلية، فهو يهذي بما يتكلم، ولا يعرف ما يقول. وليست الضوابط والقيود التي نضعها على كلامنا قبل أن نرسله إلى الناس، إلا دليلا على أننا نحن أول مستقبل للكلام الذي نرسله. ولأنّ المرسلَ هو أولُ مستقبل للكلام الذي يرسله، أوضح هذا بما رُويَ عن زهير ابن أبي سلمى أنه كان يُنَقّحُ بعض قصائده في حول كامل، فسمّيت: الحوليات. هذا يعني أنه كان يمارس عمل المستقبل (بكسر الباء)، قبل أن يمارسه المستقبلون، بل قبل أن يسمعوا القصائد. كان يمارس عمل المستقبل الناقد الذي يستوعب ما يقال، ولمن يُقال، فيغيّر، ويبدّل، ويُعدّل، ويحذف، ويزيد، ويقدّم، ويؤخر، ويستحسن، ويستقبح، تمامًا كما يفعلُ مستقبلٌ آخر طُلبَ منه أن يفعل ما يفعل المعلم.

قد يقال – ومن الحق أن يقال – يمكن أن يمارس المرسِل عمل المستقبل في الأعمال الأدبية أو العلمية، لكنْ كيف يمكن أن يكون ذلك في الكلام الذي نتواصل به في الحياة اليومية ؟ قلت: إنّ عملية الإرسال والاستقبال من المرسل نفسه وإليه، تتمّ بسرعة فائقة. والسرعةُ في العمليات العقلية العليا تحدث بقدر كبير من تجاوز الثواني، ولا تُحْسَب إلا بالجزء الواحدِ من مائة جزء من الثانية، أو

الجزء الواحد من ألفٍ منها في حالات كثيرة. والشاعرُ الذي يقرأُ قصيدته مرات ومرات قبل أن يَنشرها في الناس، إنما كان يؤدّي وظيفةَ المستقبل في كل مرة، بل كان يؤدي دَوْرَ مستقبل واحد في المرة الواحدة، ثم كان يؤدّي أدوار آخرين في المرات الأُخَر. ويروى عن البحتريّ أنه كان وهو يُنشد قصائدَه، يتوقف ثم يقول: أحسنتُ والله! هذه قضية قد ينظر إليها من قِبَل كونه مغرورًا. ربما كان الأمر على هذا النحو حقًا، وسواء صحّ هذا التصور أم لم يصحّ، فهو في النهاية يمارس ما يمارسُه المستقبِل. صحيحٌ أنه كان يقول ذلك أمام الناس. ولكن مما لا شك فيه أنه كان يجدُ مثل هذا الاستحسان بينه وبين نفسه وهو يقول قصائده. هذا يعني في النهاية أنه كان يمارسُ ما يمارسُه هو نفسُه، لو كان يستمع إلى غير شعره. أليس هذا دليلا على أنّ المرسل يؤدّي عمل المستقبل، قبل أن يستقبله أيّ شخص آخر؟ إنه يتلقى ما يتلقاه المستقبل، ويستوعبه كما يستوعبه، لكنّ ذلك كان في أثناء عملية إنتاج الخطاب. إنها عملية مركبة تؤدي فيها العمليات العقلية العليا عند المرسل وظائفها عند المستقبل.

لكنّ الناس يتفاوتون في أداءِ عمل المرسل والمستقبل معًا. لكنّ هذا لا يعني أنّ أحدًا منهم لا يمارس العملين معًا وهو يخاطبُ الناس. بعضُ الناس يجعلون إحدى الوظيفتين (وظيفة المرسل والمستقبل) متحكمة بالأخرى متقدمة عليها. وأكثرُهم نجاحًا في أداء الخطاب مَن يُحكِمون التوازن بينهما، والتوازن عملية تحتاج إلى قدر كبير من الوعي بنفسية المستقبل، وبالظروف المحيطة. لكنْ كيف يمكن أن تكون إحدى الوظيفتين متحكمةً بالأخرى؟ هذا يرتبط بمسائل متعددة منها: تكوين الشخصية، والمؤثرات الثقافية، والعمل الذي يؤديه المخاطِب (بكسر الطاء)، والمكونات الذهنية والوجدانية عنده، ومقدار تفاعل هذه المكونات بعضها مع بعض.

على هذا الأساس نستطيع أن نتصوّر مقدار ما يتحكم به الشخص من الخطاب، ومقدار ما يتحكم الخطابُ به. فذو الشخصية التي تستحوذ على قدْر كبير من أبّهة الذات، يكون من شأن الخطاب عنده على أنحاء متعددة، أولها: أن يكون الخطاب ملزمًا للمستقبِل، أو أن يكون ذلك مطلوبًا منه، وأنّ عليه أن ينفذ ما يتلقاه، بغض النظر عن كونه مقتنعًا أو غير متقنع، فَهِمَ أو لم يفهم. وثانيها أنّ يكون الخطاب ملزمًا للمستقبل، لكنه يستطيع أن يأخذ ويعطي، يستطيع أن يناقش المرسِل، غير أنه في النهاية سيجد نفسَه مضطرًا – بشكل أو بآخر – إلى التنفيذ، أو التسليم بوجهة نظر المرسل. وثالثها أن يكون الخطاب ملزمًا للآخر كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ونحن نجد لهذه الأنماط الثلاثة تطبيقات عملية في حياتنا اليومية. وفي جميع هذه التطبيقات يكون المرسِلُ هو المحور الذي من أجله أُنشِئَ الخطابُ. وقد يُظَنُّ أنه هو الذي يتحكم بالخطاب، والصحيح أنّ الخطاب الجاهزَ هو الذي يتحكم بذهنية هذا الإنسان، ومثلُه لا ينهض به خطابٌ، بل يظل بصورة دائمة محل تردّد من قبول الآخرين له.

وفي صورة مقابلة لهذه الحال، مناقضة لها تمامًا، نجدُ الشخصية التي انطبعت على اعتبار ما هو متعارفٌ عليه من تقاليد التواصل، واحترام كل شخص للآخر، والتسليم بأنّ التواصل اللغوي عملية مشتركة، يستوي فيها إرسال المرسل، وتفاعل المستقبل، وأنه بغير ذلك لا يمكن أن تستقيم للمجتمع قناتُه، ولا أن يستمر بقاؤه.

لماذا وجد الخطاب ؟

لم أرَ سؤالًا يمكن أن يكون سؤالا عن الحياة كلها مثل هذا السؤال. فأول ما نهدف إليه من عملية التواصل هو أننا نسعى إلى تحقيق إنجاز ما. قد يكون هذا الإنجاز فكريًا، قد يكون حياتيًا، وقد يكون وجدانيًا. وفي الحالات كلها لا يكون

الإنجاز إلا من طرفي عملية التواصل، وهما المرسل والمستقبل؛ فالمعلم الذي يتحصل على إنجازين، وهو يعلم طلابه أحدهما أنه يوصل إليهم المضامين والمفاهيم العلمية في مجال تخصّصه، وثانيهما أنه يُسهم في تأسيس القدرات التي تجمع المعلومات وتصنفها وتحاكمها وتتوصل إلى حلول للمشاكل العلمية. وكل واحدة من هذه القدرات تحتاج إلى طرق من التفكير العلمي، وطرق في الخطاب.

وأما عندما يكون الإنجاز حياتيًا – متعلقًا بأيّ شأن من شؤون الحياة اليومية – فإنّ القوة الإنجازية تكون أكثر تفاعلا؛ لأنّ إيقاع الخطاب فيها سريع، ومن ثمّ يحدث الإنجاز سريعًا. ولنقدم لذلك مثالا يحدث بما لا حصر له من المرات؛ فإن الواحد منا يذهب إلى متجر، ليشتري سلعة ما، فيحدث بينهما الحوار التالي:

- بكم هذا الكتاب ؟
- بدينارين
- أعطني نسخة منه
- تفضل.

أما الجملة الاستفهامية: بكم هذا الكتاب؟ فتنطوي على المضامين الآتية: أنا أريد هذا الكتاب، لكنني أريد أن أعرف ثمنه، خبّرني عن ثمنه. إذا كان ثمنه معقولا أو كنت أملك ثمنه فسأشتريه. وقد استكنّت هذه المضامين في الجملة الاستفهامية ليس بسبب أنها ثانوية أو أنها لا أهمية لها. لقد استكنّت لأنها قوة إنجازية مستترة لا يمكن أن تتحقق القوة الإنجازية المنطوقة للجملة الاستفهامية بغيرها. وأما التركيب: بدينارين، فمن الواضح أنه لا ينطوي على قوة إنجازية مستكنة كبيرة؛ وهذا من شأنه أن يقلل احتمالات التفاوض؛ لأنه لو قال مثلا: بعناه بدينارين، فهذا يعني أنه يمكن أن يباع بأقل من ذلك. وأما جملة: أعطني

نسخة منه فتعني: اقتنعت بالسعر، وأريد أن أشتريه. ومن الواضح أنّ الخطاب يحتاج إلى إخراج مناسب في هذه الحال، حتى لا ينجح المرسِل في أن يكون مرسلا، وينجح المستقبِل أو المتلقي في أن يكون مستقبلا. وفي حال نجاح كل واحد منهما يكون الخطاب قد أدى وظيفته عند كل واحد من الطرفين.

كيف يكون الخطاب ؟

هذا السؤال يمثل ما صار يعرف في الدرس اللساني الحديث بـ: إستراتيجيات الخطاب. الإستراتيجية هي الطريق المدروسة ذات الأهداف المحددة في الوصول إلى نتائج محددة. ولكل فرع من فروع المعرفة إستراتيجياته، وللخطاب مثل ذلك، غير أنّ عددًا كبيرًا من إستراتيجيات الخطاب قد تناوله الباحثون، وفي نظري أنّ دراسة عبد الهادي بن ظافر الشهري في كتابه: إستراتيجيات الخطاب هي أوعى ما صدر عن المكتبة العربية حتى الآن. وسنقف عند بعض هذه الإستراتيجيات بتعريف موجز لها، والإحاطة بتفصيلات أيّ منها غير ممكن في دراسة مقتضبة كهذه، فكيف بها جميعا ؟

أولا: الإستراتيجية التضامنية، والمقصود بها ما يُنشئه صاحب الخطاب من علاقات ضمنية في خطابه تجمع بينه وبين المستقبل. وتتمثل في أداءات متعددة منها أن يحترم عقول المستقبلين، وألا يتعالى عليهم، وأن يكون في خطابه شيءٌ من التودد، والاحترام، والتقدير للناس جميعًا، وللمخاطَبين خاصة، على ألا يكون في ذلك شيءٌ من التكلف أو التهافت على استرضاء المخاطَبين. إنّ الخطاب الذي يتبع هذه الإستراتيجية يجعل الناس الذين يوجه خطابه إليهم يتعاطفون مع ما يريد أن يوصله إليهم.

ثانيًا: الإستراتيجية التوجيهية، والمقصود بها الخطاب الموجّه إلى المخاطَب بعدد من أساليب اللغة مثل الأمر والنهي والنداء والحضّ، وبمضامين معينة مثل النصح والتوجيه والإرشاد والتذكير والدعاء وغير ذلك من المضامين التي يُتَحَصل منها التوجيه في النهاية. سأضرب مثلا من القرآن الكريم، فقد قال تعالى: " والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة " (البقرة 233). فالآية في ظاهر منطوقها تخبرنا بأنّ الوالدات يفعلن كذا وكذا. ولكنّ الآية لا تخبرنا بذلك، إنها تأمر – عن طريق التوجيه – الوالدات بالمضمون المذكور.

ثالثا : الإستراتيجية التلميحية: تقوم هذه الإستراتيجية على التلميح بطلب شيءٍ، أو التلويح بردّه، أو الإعجاب بشيءٍ، أو التعريض به واستقباحه، أو الموافقة على مضمون معيّن، أو الاعتراض عليه، أو الإخبار بتبّنّي شيءٍ ما، أو تركه واطّراحه، أو تصحيح خطأ أو تخطئة فكرة، من غير أن يكون في ذلك شيءٌ من التصريح والمباشرة في عرض الفكرة. وهذه الإستراتيجية واسعة جدًا، حتى إنها توشك أن تدخل في معظم أبواب الحياة. وأدنى ما يمكن تصوره من عبارات في هذا المجال، أن تقول للمخطئ، لو فعلت كذا وكذا لكنت موفقًا أكثر. هذا القول يعني أنّ المخاطَب قد أخطأ وأنه لم يكن موفقًا. لكنّ عبارة كهذه لا تستفز أحدًا، فهي ضربٌ من التلميح.

رابعًا: إستراتيجية الإقناع: تقوم هذه الإستراتيجية على مخاطبة عقل المتلقي لإقناعه بسلامة المنطق الذي يستخدمه الخطاب. والإقناع لا يكون فقط بحمل المتلقي على التصديق بأفكار الخطاب ومبادئه، والتوجه الذي يسير عليه صاحب الخطاب، والطرق التي اتبعها في تبني ما يعتقده ويؤمن به. إنه إلى جانب ذلك حمل القارئ – الحمل لا يعني الإكراه – على التصديق بسلامة الطريقة التي يتبعها في عرض أي موضوع ومناقشته. هو كذلك قدرة على اختيار الكلمات

المناسبة للموضوع، والإسهاب في الموطن الذي يحتاج إلى إسهاب، والإيجاز في الموطن الذي لا يحتاج إلا إلى الإيجاز. هو كذلك عرض الأفكار بتجرد وموضوعية دون أدنى تحيز، إلى جانب مناقشتها بموضوعية وتجرد. صحيحٌ أنّ الموضوعية المطلقة ليست موجودة، ومن ثم لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولكن لا بدّ من حمل النفس على مثل هذا السلوك، حتى يصبح في المرء بعض سجاياه.

المراجع

الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة القاهرة، 1965.

زرال، صلاح الدين. الظاهرة الدلالية، بيروت: الدار العربية للعلوم، 2008.

الشهري، عبد الهادي. إستراتيجيات الخطاب. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2004.

المتوكل، أحمد. الخطاب وخصائص اللغة العربية. بيروت: الدار العربية للعلوم، 2010.

Chomsky, Noam. Language and Problems of Knowledge. The Managua lectures, 2000.

Gazdar, Gerald. Pragmatics. N.Y., Academic Press,1979.

Lyons, John. Semantics. Cambridge University Press, 1979.

Halliday, M. & R. Hasan. Cohesion in English. London, Longman, 1976.

Jakobson, Roman. Selected Writings. Paris, Mouton, The Hague,1971.

Miller, George. Psychology and Communication. Princeton, New Jersey, 1974.

التعليقات والمناقشات

- أحد الحاضرين

يتساءل عن سبب تجاهل د. استيتية للملكة البلاغية للخطاب؛ إذ ذكر الاجتماعية والنحوية والمنطقية ولم يتطرق للملكة البلاغية!

- رد الدكتور سمير استيتية

يرى أنه إن كان تعريف البلاغة: أن أبلغ إليك بما أريد، فهذا يعني أن البلاغة لا يمكن أن تتأتى إلا بوجود الملكة المنطقية والمعرفية والنحوية والاجتماعية، هذا الكلام ذكره ابن عيَّاش لمعاوية بن أبي سفيان حين سأله: ما البلاغة عندكم؟ قال: شيءٌ تجيش به صدورنا فتنطلق به ألسنتنا.

ويقول د. سمير: لا أعرف شيئاً أدقَّ من هذا يمكن أن توصف به البلاغة.

ويتابع: برأيي، النحو بلاغة؛ فلا يوجد شيءٌ يسمَّى نحواً خارجاً عن البلاغة، ومثال ذلك حين تقول: زيدٌ في البيت وفي البيت زيد؛ فهل هاتان الجملتان تؤديان المعنى نفسه؟ بالطبع لا، فالجملة الأولى تعني: أنه ليس غير زيد في البيت وزيد لا أقصد غيره، أما الثانية فتعني: في البيت لا في مكان آخر زيد، فالجملة الأولى تكون جواباً عن سؤال: من في البيت؟ أما الثانية فعن سؤال: أين زيد؟.

وعلم المعاني كان جزءاً من النحو، ثم فصله من فصله عن النحو وإلا كان النحو مقترناً بالجمال؛ فعندما يقول الشاعر: وقوفاً بها صحبي ولم يقلْ قِفا؛ فهو لا يريد منهم أن يقفوا وإنما أن يتمثَّلوا الوقوف كأنهم شيءٌ لا يتحرَّك.

وبرأيه أن البلاغة لا تكون بمعزل عن النحو؛ ويقرأ البلاغة في أي كتاب تراثٍ كما يقرأ القاعدة النحوية، فلا وجود للبلاغة منفصلة عن النحو عنده.

كما يرى أن الخطابة ما وراء النص كما وراء النصِّ من أشياء كثيرة من جملتها فهم الخطاب.

وفي باب علم النفس وتحليل الشخصية يقول: يستدل على شخصية المتكلم من أول ثلاث جمل يتكلمها؛ فاللغة هي شخصيتك وهي المعبر الأساسي عنك.

كما لا يرى البعد الاجتماعي منفصلاً عن البعد النفسي بأي حال، ويعرِّف البعد النفسي كما يراه: الصورة التي يتمثل بها مجتمعه، فسيكولوجية الشخص هي السلوك الموجود بالفعل وسلوكيات الناس جميعاً هي السلوك الموجود بالقوة؛ فالواحد منا يمثل الجميع ولكن بطريقته الخاصة، ومن هنا نشأ ما أسماه (بصحة الخطاب).